

بَلَاغَةُ الوَصْفِ فِي حَدِيثِ أُمِّ مَعْبَدٍ

وليد محمود أبو ندى

أستاذ دكتور في كلية الآداب- قسم اللغة العربية

الجامعة الإسلامية- غزة- فلسطين

wnada@iugaza.edu.ps

قبول البحث: 2021/8/7

مراجعة البحث: 2021 /6/20

استلام البحث: 2021 /5/10

DOI: <https://doi.org/10.31559/JALLS2021.3.3.1>



This file is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

بلاغة الوصف في حديث أمّ مَعْبَد

وليد محمود أبو ندى

أستاذ دكتور في كلية الآداب- قسم اللغة العربية- الجامعة الإسلامية- غزة- فلسطين

wnada@iugaza.edu.ps

استلام البحث: 2021/5/10 مراجعة البحث: 2021/6/20 قبول البحث: 2021/8/7 DOI: <https://doi.org/10.31559/JALLS2021.3.3.1>

الملخص:

تداولت مصادر الحديث والسيرة وصف أمّ مَعْبَد الخُزاعية للنبي عليه السلام، حين نزل بخيمتها، في طريق هجرته من مكة إلى المدينة، ووصفها للنبي -عليه السلام- من أجل الأوصاف له وأكملها، وهو أثر أدبي نفيس من حرّ الكلام العربي، وقد تناولت هذه الدراسة كشافاً للأسرار النظمية المنطوية في الوصف، إذ أبرزت الدراسة طريقة العرب الأوائل في نظم الكلام من جلال الفصاحة وحلو الألفاظ وبهاء التراكيب وقصد المعنى وجمال الإيقاع وحسن الجرّس، لا سيما الموصوف أكمل الخلق نوراً وبهاءً جمالاً، فاكتمل الوصفُ بكمالٍ موصوفه وبلاغةٍ واصفه.

الكلمات المفتاحية: بلاغة؛ وصف؛ حديث نبوي؛ أمّ مَعْبَد.

المقدمة:

تداولت مصادر الحديث السيرة النبوية قصة أمّ مَعْبَد الخُزاعية التي مرّ الرسولُ -صلى الله عليه وسلم- بخيمتها؛ مهاجراً من مكة إلى المدينة، وقد رواها جماعة من الحُفَاط⁽¹⁾، وتتباين روايات الحديث في ألفاظها، وقد أثرنا أن نعتدّ متنّ مستدرک الحاكم على الصحيحين في رواية القصة، وصحّ الحاكم هذا الحديث، وقال عنه: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"⁽²⁾. وقد تضمنت القصة وصف الأعرابية (أمّ مَعْبَد) للنبي عليه السلام، وهذا الوصف أثر أدبي نفيس لامرأة أعرابية شهدت أنوار النبوة، فتسلطت على نفسها، وأخرجت أجملَ وأنقى ما في كلام الأعراب من فصاحة وملاحية، وقد ذكرت شروح غريب الحديث والمعجم بياناً وتجليّة للغريب في وصفها، دون أن نعتز على دراسة وافية لهذا الوصف النفيس، فكانت هذه الدراسة خطوة في طريق استكناه أسرار هذا الوصف وبيان جماليته، وقد اشتملت الدراسة على خمسة مباحث، إذ تناول المبحث الأول شرح الوصف شرحاً لغوياً أدبياً، وتناول المبحث الثاني فصاحة اللغة والتراكيب، وجاء المبحث الثالث تفصيلاً في بلاغة الوصف، وتحدث المبحث الرابع عن جمال الإيقاع في وصفها، وكشف المبحث الخامس عن جوانب مشرقة في شخصية أمّ مَعْبَد-رضي الله عنها-؛ من كرمها وعفتها وصدقها وحلاوة منطقتها وصدق لهجتها، مما أعطى الوصف قيمةً واعتباراً عند رواة الأحاديث، وتوارثته أجيال المسلمين بالرضى والقبول. وقد اتكأ الباحث على جملة من مناهج البحث؛ كالمنهج التاريخي في سرد قصة الهجرة، والمنهج الوصفي التحليلي في تحليل كلام الأعرابية ونظمها، والمنهج الجمالي في رصد جماليات الإيقاع والتراكيب، والمنهج الذوقي البلاغي في تذوق بلاغة الوصف وبيان أسرارها، والمنهج النفسي في استكناه شخصية أمّ مَعْبَد.

(1) منهم: ابن الأثير في شرح الطوال الغرائب، 172، والسيوطي في الخصائص الكبرى، 466/1، والهينبي في المجمع 263/9، 278/8، 55/6، والزمخشري في الفائق، 94/1، وابن كثير في السيرة، 257/2.

(2) المستدرک على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، 10/3.

المبحث الأول: شرح وصف أم معبد

ذكر الحاكم في المستدرک متن الحديث بقوله: "حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو الْأَحْمَسِيُّ بِالْكُوفَةِ، ثنا الْحُسَيْنُ بْنُ حُمَيْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْخَزَّازِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ ثَابِتِ بْنِ بَسَّارِ الْخَزَّاعِيِّ، ثنا أَخِي أَيُّوبُ بْنُ الْحَكَمِ، وَسَالِمُ بْنُ مُحَمَّدِ الْخَزَّاعِيِّ جَمِيعاً، عَنْ جِزَامِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ هِشَامِ بْنِ حُبَيْشِ بْنِ حُوَيْلِدِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِراً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَوْئِلُ أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَذَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرْقِطٍ مَرُّوا عَلَى خَيْمَتِي أُمِّ مَعْبِدِ الْخَزَّاعِيَّةِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً بَزْرَةً جَلْدَةً تَحْتِي بِفَنَاءِ الْخَيْمَةِ، ثُمَّ تَسْقِي وَتَطْعِمُ، فَسَأَلُوهَا لَحْماً وَتَمراً لِيَشْتَرُوا مِنْهَا، فَلَمْ يَصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقَوْمُ مُزْمِلِينَ مُسْتَنِينَ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الْخَيْمَةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبِدٍ؟، قَالَتْ: شَاةٌ خَلَفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْعَنَمِ، قَالَ: هَلْ يَهَا مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَتَأَذِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا؟ قَالَتْ: بَابِي وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ يَهَا حَلْباً فَاحْلِبِيهَا، فَدَعَا يَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ بِيَدَيْهِ صَرَعَهَا، وَسَقَى اللَّهُ تَعَالَى، وَدَعَا لَهَا فِي شَائِبِهَا، فَتَفَاجَتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ، فَاجْتَرَّتْ، فَدَعَا بِإِنَاءِ يَزِيضِ الرَّهْطِ فَحَلَبَ فِيهِ نَجاً حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوَيْتَ وَسَقَى أَصْحَابَهَا حَتَّى رَوُوا وَشَرِبَ أَجْرَهُمْ حَتَّى أَرَاضُوا، ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ الثَّانِيَةَ عَلَى هَذِهِ حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ غَاذَرَهُ عِنْدَهَا، ثُمَّ بَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَقَالَ مَا لَبِئْتَ حَتَّى جَاءَهَا زَوْجُهَا أَبُو مَعْبِدٍ لِيَسُوقَ أَعْتِزاً عِجَافاً يَتَسَاوَكُنْ هَذَا مُخْتَبِراً قَلِيلٌ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبِدٍ اللَّبَنَ أَعْجَبَهُ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبِدٍ وَالشَّاةُ عَازِبٌ حَائِلٌ، وَلَا حَلُوبٌ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مِبارِكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: صِفِي لِي يَا أُمَّ مَعْبِدٍ، قَالَتْ: رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهَ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعْبَهُ نَجْلَةٌ، وَلَمْ تُرَّرْ بِهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لَحْيَتِهِ كَثَائَةٌ، أَنْجُ أَقْرُنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاءُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَأُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلُوُ الْمُنْطِقِ فَضْلاً، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خِرَزَاتٌ نَطِمْ، يَتَحَدَّرْنَ، رُبْعَةٌ لَا تَشْتَأُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَفْتَحُمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، عُصْبٌ بَيْنَ عُصْبَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظِراً وَأَحْسَنُهُمْ قَدِراً، لَهُ رَفَقَاءٌ يَحْفُونَ بِهِ، إِنْ قَالَ سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْسُودٌ لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْتَدٌ، قَالَ أَبُو مَعْبِدٍ: هَذَا وَاللَّهِ صَاحِبُ فُرَيْسِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذَكَرَ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأْفَعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً".⁽³⁾

أولاً: شرح الوصف:

بدأت أم معبد ووصفها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقولها: (رأيت رجلاً ظاهر الوضأة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبهُ نجلَةٌ، ولم تُرَّرْ به صَعْلَةٌ، وسيمٌ قسيمٌ...).

يفيد الفعل (رأيت) المسند إلى ضمير التكلم الرؤية البصرية التي تبلغ حد اليقين، لم تقل سمعتُ أو أخبرني؛ بل جلت وصفها بقولها (رأيت)، وهذه الرؤية العينية والمشاهدة المحققة أكسبت وصفها الصدق، حتى حفلت به الرواة وتلقته بالرضا واليقين، وتوارثته القرون جيلاً إثر جيل، وقولها (رجلاً) على التنكير؛ أي رجلاً لا تعرفه؛ لذا لم تُسمِّه، ولم يخبر عليه السلام أم معبد عن حاله واسمه ومن معه، وهم أبو بكر ومولاه والدليل، وهذا ادعى للصدق والإنصاف في الوصف، وأنها خالية الذهن عند وصفها له عليه الصلاة والسلام، أما قولها (ظاهر الوضأة) فالوضأة اسم وسمة من الفعل "يوضؤ وضأة، بالفتح والمد: صار وضيئاً"⁽⁴⁾، والوضأة "الحسن والنظافة، والوضأة: الحسن والبهجة"⁽⁵⁾.

وهذا الحسن الوضيء سمة ظاهرة في خلقه عليه السلام، وهذه الوضأة إنما هي نور النبوة، لا يخطئها من كان ذا فراسة أو فطرة سليمة، وحين نظر إليه عبد الله بن سلام في وفد من الناس؛ قال شهادته فيه: "فَجِئْتُ فِي النَّاسِ؛ لَأَنْظُرَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَدَّابٍ"⁽⁶⁾؛ لذا حصت وجهه بفيض نوره، فقالت: (أبلج الوجه)، وتنت بالوجه؛ لأنه عنوان المرء ومركز الجمال، والبلج "وضوح الشيء وإشراقه، ومنه انبلاج الصبح"⁽⁷⁾، وأبلج الوجه: "أني مُشْرِقُ الْوَجْهِ مُسْفِرُهُ"⁽⁸⁾.

(3) المستدرک على الصحيحين، 10/3.

(4) لسان العرب، ابن منظور، مادة (وضأ).

(5) لسان العرب، مادة (وضأ).

(6) صحيح سنن ابن ماجه، الرقم 3251.

(7) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (بلج).

(8) النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/151.

وجهٌ نقيٌّ صادقٌ، يفيضُ نوراً وبياضاً كبياض الصبح، الذي أبلج في ليلٍ مهيمٍ فأضاء المكان، وعند الترمذي من حديث عن أبي هريرة، قال: "ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه. قال العلماء: شبهَ جريَّانِ الشمسِ في فلكيها جريَّانِ الحسنِ في وجهه صلى الله عليه وسلم"⁽⁹⁾، وهذا من دلائل النبوة وعلائم الصدق.

وقولها (حَسَنَ الخَلْقِ)؛ والخلق بسكون وسطه، وهذا إجمالٌ في الوصف، فقد وصفته بالتناسب والملاحة في خلقته، ولم تذكر خلقه، ولا أوصافه المعنوية، ولا ما يختص بالصورة الباطنية؛ لأنها صادقة، لم تخالطه مخالطةً تمكّنها من وصف أخلاقه على الحقيقة والتفصيل، وإنما ذكرت صورته الظاهرة بحسنها وجمالها، وقولها: (لَمْ تَعْبَهُ نُجْلَةٌ، وَلَمْ تُزِرْ بِهِ صَعْلَةٌ)، تعليلٌ لحسن صورته وجمال تقاسيمه، والتَّجَلُّ: "عَظَمَ البَطْن، رجل أنجل وأمرأة تجلاء"⁽¹⁰⁾، وزاد صاحبُ الجمهرة المعنى بقوله: "التَّجَلُّهُ بالضم: عَظَمَ البَطْنِ وَسَعَتُهُ"⁽¹¹⁾، وقَيَّد (التجل) بسعة البطن واسترخائه وبروز الخاصرتين: "تَجَلَّ، كَفَرَحَ: عَظَمَ بَطْنُهُ وَاسْتَرَحَى، أَوْ حَرَجَ خَاصِرَتَاهُ"⁽¹²⁾، وذكر الأصمعي "من البطون الأضيف وهو الضامر، ومنها الأثجل وهو استرخاء أسفل البطن"⁽¹³⁾، وكأنَّ تجل البطن عيبٌ عند العرب، فهي تنفيه عنه، فهو -عليه السلام- ليس بالبدين المتكترش، ولا المترهل الكسول، أو المزمن الذي أفعده المرض فتكور بطنه واسترخى، وهي تصفُ رجلاً في الثالثة والخمسين من عمره، بهذه الرشاقة والقوام الحسن⁽¹⁴⁾، وكانت العربُ تعيبُ بالبطنية وعظم البطن، وتمدحُ بضده، ومنه قول الشاعر:

لقد كَفَّنَ المِهْجَالُ تَحْتِ رِذَائِهِ فَتَى غَيْرِ مِبْطَانَ العَشِيَّاتِ، أَرْوَعًا⁽¹⁵⁾

وقولها (وَلَمْ تُزِرْ بِهِ صَعْلَةٌ)، والصَّعْلَةُ: "صَغَرَ الرَّأْسُ، يُقَالُ: رَجُلٌ صَعَلُ الرَّأْسِ إِذَا كَانَ صَغِيرَ الرَّأْسِ"⁽¹⁶⁾، ولصغر رأسه كأنها تستوي مع العنق فلا يتميز عنه، وهو مذمومٌ وقبيحٌ، ولعل جُزَسَ الكلمة يشي بشيء من هذا القبح، يقول الخليل: "الصَّعَلُ من النَّعَامِ ما صَغَرَ رَأْسُهُ، وكذلك الرَّجُلُ الصَّعَلُ إِذَا صَغَرَ رَأْسُهُ، كأنه يستوي مع عنقه من غير قِصَرٍ في العنق"⁽¹⁷⁾. وقد مدحت أم معبد حسنَ استدارة رأسه ووفايته، فهو لا يحقره صغر الرأس، ودقته العنق، فهو وافٍ الرأس؛ ليس بصغيرها؛ فتفتححه العيون، أو تلتفت عنه، وهذا من معايير الفروسية والسيادة عند العرب، يقول شاعرهم:

وَأَنَا أَنَا سٌ يَمَلَأُ البَيْضَ هَامُنًا... وَنَحْنُ حَوَارِيُونَ حِينَ نَزَاحَفُ⁽¹⁸⁾

وذكر الجاحظُ أن "من تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع فتكون سيدها، ولا بأسح فتكون فارساً"⁽¹⁹⁾. وسلمة الهذلي: ما أنت بعظيم الرأس ولا ثقيل السمع فتكون سيدها، ولا بأسح فتكون فارساً"⁽¹⁹⁾. وقولها (وَسِيمٌ قَسِيمٌ) هذا إجمالٌ وبيان، ولو شاءت أم معبد لفصّلت، لكنها أجملت وأشارت على طريقة العرب الأوائل، والوسامة "الحُسْنُ الوَظِي الثَّابِتُ"⁽²⁰⁾، وقيل "الْوَسَامَةُ: أَثَرُ الحُسْنِ، وَقَدْ وَسُمَ، كَكَرُمَ، وَسَامَةٌ وَوَسَامَةٌ، بفتحهما، فهو وَسِيمٌ"⁽²¹⁾. ووسامته عليه السلام متفردة، ذات حسنٍ مضيءٍ، وهو الذي تنجذب إلى حسنه الأرواح، وتتعلق به النفوس، والقسامة: "الحُسْنُ، وَرَجُلٌ مُقْسَمُ الوَجْهِ: أَيُّ جَمِيلٍ كُلُّهُ، كَأَنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ مِنْهُ أَخَذَ قِسْمًا مِنَ الجَمَالِ"⁽²²⁾، وقد حارت الأعرابية في وصفه، فقالت ماذا أصفُ من جماله؟ فهو غايةُ الحسن، وقد أخذ كلَّ عضوٍ منه حظَّهُ من الوسامة والجمال.

وقولها: "فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْقَارِهِ وَطْفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطْعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَافَةٌ، أُنْجُ أَقْرَنُ.."، ثم تعلق وتفصل هذه الوسامة والقسامة، وتبدأ بالعينين وهما موضعُ الجمال، والدَعَجُ: "شَدَّةُ سَوَادِ العَيْنِ مع سَعَتِهَا. يُقَالُ: عَيْنٌ دَعَجَاءُ"⁽²³⁾، فهو مع

(9) سنن الترمذي، رقم 829

(10) جمهرة اللغة، ابن دريد، 1/415

(11) تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة (تجل).

(12) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة (تجل).

(13) خلق الإنسان، الأصمعي، 21.

(14) شاع داء استرخاء البطن وعظمه بين الجيل الحاضر، وهو ما يطلق عليه العامة (الكرش)، ولم يسلم من ذلك الشباب والفتيات، ولا الرجال ولا النساء، فالأقتداء بمحمد صلى الله عليه وسلم -يوجبُ انقفاء الكرش، وضمور البطن، واستواؤه مع الصدر كما وصفته أم معبد.

(15) المفضليات، 265.

(16) اللسان، مادة (صعل).

(17) كتاب العين، الفراهيدي، 1/302.

(18) ديوان مسكين الدارمي، 75.

(19) البيان والتبيين، الجاحظ، 94.

(20) لسان العرب، مادة (وسم).

(21) القاموس المحيط، مادة (وسم).

(22) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 4/63.

(23) الصحاح، مادة (دعج).

وضاءته وإشراق وجهه واسع العينين، نقي سوادهما وبياضهما على صفاء، ثم وصفت أشفاز عينيه بالطول والاسترخاء: لأن الوطف: كثرة شعر الحاجبين والأشفار، واسترخاؤه⁽²⁴⁾، وهذا مستملح في الخلق، قال الأصمعي: "وفيها الأشفار، وهي حروف الأجناف التي تلتقي عند التغميض، والواحد منها شفر، والشعر الذي ينبث فيها الهدب، والواحدة هدبة مخففة، فإذا طالت الأهداب قيل: رجل أهدب وامرأة هدباء، ورجل أوظف وامرأة وطفاء، وهو مثل الهدب"⁽²⁵⁾.

وقولها: (وفي صوته صهل)؛ والصوت أحد معايير الجمال عند العرب، وصوت المرء جزء من معدنه وأخلاقه، وقد استرعى جمال صوته الأعرابية، إذ الصهل "حدّة الصوت مع بحح"⁽²⁶⁾، وفي رواية أخرى (وفي صوته صحل)، وهذا رجحه صاحب التهذيب بقوله: "الصحل صوت فيه بحّة، يُقال: صحلّ صوته صحلاً فهو صحلّ الصوت، وفي صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين وصفته بها أمّ معبد: (وفي صوته صحل) أرادت أن فيه كالبحّة، وهو ألا يكون حاداً، وقال ابن شميل: الأصحل: دون الأبح، إنّما الصحلّ: جُشوء في الصوت إذا لم يكن صافياً، وليس بالشديد، ولكنه حسن"⁽²⁷⁾.

وقولها (وفي غنقه سطلع)، جاء في معناه: "سطلع الظليم، أي: رفع رأسه، ومدّ عنقه، وظليم أسطع: طويل العنق"⁽²⁸⁾، أي طويل العنق عليه الصلاة والسلام، ونلمح في لفظ (سطلع) غير الطول: الإضاءة واللمعان، والعنق والرقبة جزء كريم من الإنسان، ولعل القرآن ضارع الإنسان بالرقبة، وتفسير هذا "تخصيص العنق لظهور ما عليه من زائن كالقلائد والأطواق، أو شائين كالأغلال والأوهاق، ولأنه العضو الذي يبقى مكشوفاً يظهر ما عليه، ويُنسب إليه التقدم والشرف، ويُعبر به عن الجملة وسيد القوم"⁽²⁹⁾.

وقولها (وفي لحيته كثائفة)، وهذا من قولهم: "كنت اللحية، تكث كثائفاً، وكثائفة، وهي كثة، وكثاء: كثرت أصولها وكثفت وقصرت وجعدت فلم تنبسط"⁽³⁰⁾، وقد فهم ابن الأثير: "أنه كان كث اللحية: أراد كثرة أصولها وشعرها، وأن تكون غير دقيقة، ولا طويلة، وفيها كثافة"⁽³¹⁾.

وهذا أجمل للحية وأكمل، وكانت العرب تعيب بخفة شعر اللحية، حتى أطلقوا على خفيف شعر اللحية "رجل أضرط: خفيف اللحية قليلها"⁽³²⁾.

وقولها (أنج أقرن)، قال الأصمعي: "الحاجبان: الشعر النابت على حروف الجاجين"⁽³³⁾، وفي الحاجبين القرن، وهو أن يطول الحاجبان حتى يلتقي طرفاهما، وفيها الزجج، وهو طول الحاجبين، ودقهما، وسبوغهما إلى مؤخر العين، وفي الحاجبين البلج؛ وهو أن ينقطع الحاجبان فيكون ما بينهما نفيماً من الشعر، فذلك البلج، وذلك الموضع يسمى بلجة، والعرب تستحب البلج، وتمدح به، ويكرهون الغمم، يقال رجل أبلج وامرأة بلجاء"⁽³⁴⁾.

ومما يتقدم من وصفها أنه طويل الحاجبين؛ مقرون الحاجبين، أي (التقاء الحاجبين)، وقد ورد وصفه بغير هذا، وقد ناقش ابن الأثير ذلك، فقال: "في صفته عليه الصلاة والسلام (سوايح في غير قرن)؛ القرن -بالتخريك- التقاء الحاجبين، وهذا خلاف ما روت أمّ معبد، فإنها قالت في صفته: (أنج أقرن)؛ أي مقرون الحاجبين، والأول الصحيح في صفته"⁽³⁵⁾.

وقولها: (إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماءه وعلاه الهاء)، بعد أن وصفت حسن خلقه ووضاءة وجهه؛ أرادت أن تنصف منطقته، وحال صمته وكلامه، فربما كان الرجل مظهرًا بغير مخبر، وبدأت بوصف صمته؛ لأن أصل حال المرء الصمت، فإن صمت فعليه الوقار، وهو: "الحلم والرزانة"⁽³⁶⁾، و"التعظيم والترزين"⁽³⁷⁾، أي أن العين تعظمه حال صمته، وخشية أن يظن السامع أن الصمت ديدنه، وأنه ربما كان عن عي، قالت محترسة: (وإن تكلم سماءه وعلاه الهاء) فهو بهي "يمال العين روعه وحسنه"⁽³⁸⁾.

(24) العين، 7/458.

(25) خلق الإنسان، 20.

(26) القاموس المحيط، مادة (صهل).

(27) تهذيب اللغة، 4/21.

(28) العين 1/320.

(29) روح المعاني، الألويسي، 9/45.

(30) المحكم والمحيط الأعظم، 6/651.

(31) النهاية في غريب الحديث، 4/152.

(32) جمهرة اللغة، 2/361.

(33) الججاج: العظم النابت عليه الحاجب والججاج العظم المستدير حول العين. (اللسان: مادة حجج).

(34) خلق الإنسان، 30.

(35) النهاية في غريب الحديث، 4/54.

(36) مجمل اللغة، لابن فارس، 933.

(37) الصحاح، مادة (وقر).

(38) تهذيب اللغة، 6/241.

وقولها: (أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَهْبَاهُ مِنْ بَعِيدٍ) هذا من كمالِ جماله عليه السلام، فهو بهيُّ جميلٌ من بعيد، وإذا قَرَّبَ منك ازدادَ جمالاً، ولم ينقص حسنه؛ لأن بعضَ الناس بهيُّ من بعيدٍ، فإذا اقترب تبدد هذا الحسن، ثم عادت إلى وصف كلامه جرياً على عادة العرب الأوائل في وصفهم، إذ يتداخل الوصفُ، ويظنون مرةً، وينشرون أخرى، فهو (خُلُوُ الْمُنْطِقِ فَضْلاً، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ حَرَزَاتٌ نَظْمٌ). ووصفته بحلاوة منطقه لاستغراق كلامه كله، فلا يخرج إلا حلواً سائغاً، "وفي صِفَةِ كَلَامِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَضْلٌ لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، أَي: لَيْسَ بِقَلِيلٍ فَيَدُلُّ عَلَى عِيٍّ، وَلَا بِكَثِيرٍ فَاسِدٍ"⁽³⁹⁾. وقد مدحت العرب بهذا، قَالَ ذُو الرُّمَّة:

لَهَا بَشْرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ... رَخِيمِ الْحَوَاشِي لَا هُرَاءٌ وَلَا نَزْرٌ⁽⁴⁰⁾

ثم تفصل في جمال منطقه وحلاوته، وتحذر كلماته، كأنها الخرزات النفيسات المنظومات، وهذا كناية عن قلة كلامه ونفاسته، فكلامه معدودٌ منظومٌ، قالت عائشة -رضي الله عنها-: "مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْرُدُ سِرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيْنَ فَصْلِ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ"⁽⁴¹⁾.

وفي وصف أم معبد لكلامه سرٌّ لطيفٌ، أي أنه عليه السلام يضع كل كلمة موضعها من النظم، وهي أعرابية قحة تشهد بفصاحة منطقه، وبلاغة نظمه، فكلامه منظومٌ مسبوكتٌ، غير محلول، ولا مبدد فاسد، وقد أجادَ الجاحظُ في وصف منطقه عليه السلام: "لم ينطق إلا عن ميراثٍ حكيمٍ، ولم يتكلم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشيَّد بالتأييد، ويُسرَّ بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبَّة، وغشَّاهُ بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغناؤه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمةٌ، ولا زلت به قَدَمٌ، ولا بازت له حَجَّةٌ، ولم يَقُمْ له حَصَمٌ، ولا أفتحته خطيبٌ، بل يبذلُّ الخُطْبَ الطَّوَالِ بالكلم القِصَارِ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلافة، ولا يستعمل الموازية، ولا يهيمز ولا يلمز، ولا يُبْطِن ولا يُعْجَل، ولا يُسْهب ولا يُخَصِر، ثم لم يسمع الناس بكلامٍ قطَّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرمَ مطلباً، ولا أحسنَ موقفاً، ولا أسهلَ مخرجاً، ولا أفصحَ معي، ولا أبينَ في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم"⁽⁴²⁾.

ثم وصفت حُسنَ فرعه بقولها: (رَبْعَةٌ، لَا تَشْتَأُهُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَفْتَحُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ)، وقد شرحت أم معبد قولها (ربعة) قبل أن يشرحها أهل المعاجم، والربعة "أي مَرْبُوعُ الْخَلْقِ، لَا طَوِيلٌ وَلَا قَصِيرٌ"⁽⁴³⁾، وهذا ألمح في وصف الرجال، فالطولُ المفرط جالب شناعة العين، والقِصَرُ أدعى للتحقير، وهذا من ألمح ما وصفت العرب به أسيادها وأشرفها، قالت الخنساء:

طويل النجاد رفيع العما... د ساد عشرته أمردا⁽⁴⁴⁾

وقال المبرد معقباً على قولها، "قولها: طويل النجاد، النجاد: حمائل السيف، تريد بطول نجاهه طول قامته، وهذا مما يُمدح به الشريف"⁽⁴⁵⁾.

ثم لما أتمت وصفه، ومألت العين جمالاً وحلاوةً ومهابةً؛ التفتت إلى أصحابه، فأكملت مدحه عليه السلام بمدح صحبته (غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا)، ولا يكتمل جمال المرء إلا بصحبته، والصحبة دليل على باطن من يصاحب، فقالت في نضارته ونضارة أصحابه غصن بين غصين، ويُستفاد من التشبيه بالنضارة اللين والحسن، ثم وصفت وقار أصحابه له، فقالت: (لَهُ رُفْقَاءٌ يَحْفُونَ بِهِ، إِنْ قَالَ سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ)، "وَحَفُّوا حَوْلَهُ يَحْفَوُ حَفًّا، أَي أَطَافُوا بِهِ وَاسْتَدَارُوا"⁽⁴⁶⁾.

وهي تحمل معنى الإحاطة والقرب والتكريم، كأنها من الحافة والاحتفاء، ثم بينت ما ذكرت على طريقتهما في نظم الكلام، فهو مطاعٌ موقرٌ من أصحابه، إن قال أنصتوا لكلامه، لا مشاغبة ولا انشغال عن جوابه، وإن أمرهم بأمرٍ تسابقوا إليه، غير مقصرين ولا مسوقين، وقولها (مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ) بشري وقائلٌ حسن، وتفريسي في موضعه؛ أن أمر محمد -عليه السلام- ودعوته صائران إلى حَفْدٍ وحشدٍ وتمكين.

(39) القاموس المحيط، مادة (هذر).

(40) ديوانه، 197.

(41) الشمائل المحمدية، الترمذي، 114.

(42) البيان والتبيين، 17/2.

(43) الصحاح، مادة (ربع).

(44) ديوانها، 33.

(45) الكامل، 3/1413.

(46) الصحاح، مادة (حفف).

والمحفود "الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه، ويسرعون في طاعته"⁽⁴⁷⁾، وذكر صاحب التهذيب "أزادت أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون عليه، ويقال: احتشد القوم لفلان إذا أردت أنهم تجمّعوا له وتآهبوا، وعند فلان حشد من الناس أي جماعة قد احتشدوا له، وقال أبو عمرو: يقال للرجل إذا نزل بقوم وأكرموه وأحسنوا ضيافته قد حشدوا له، وقال الفراء: حشدوا له وحفلوا له إذا اختلطوا له، وبالغوا له في إطفاه وإكرامه"⁽⁴⁸⁾، وهذا قليل من حقد صحابته له عليه السلام، وحشدهم حوله، وحول أمره ودعوته.

ثم عادت إلى وصف حاله وطلاقته وبشره: (لا عابسٌ ولا مُفندٌ). وقد روي مفند بكسر النون وفتحها مع تشديدها، والتفنيذ بالكسر له دلالتان، إذ يُقال: "أفند الرجل، إذا كبر حتى يتكلم بما لا يُحتاج إليه، وفندت الرجل تفنيذاً، إذا خطأته ورددت عليه قوله"⁽⁴⁹⁾، وبالفتح: أي كلامه رزين رصين، لا يُفند جلساؤه كلامه، وعد الأصمعي أنهما بمعنى واحد، إذ قال: "إذا كثر كلام الرجل من حرق فهُوَ المُفند والمُفند"⁽⁵⁰⁾.

وهذا من أدب النبوة العالي، فهو ليس بعابسي، ولا لجوج صخوب، بل منصت لهم، موقر لحديثهم، وهم موقرون له، معظمون لكلامه؛ لنفاسته ومزنته عندهم.

إذا تأملت أوصاف الأعرابية وجدتها عزيزة نفيسة مليحة، مشرقة بأنوار النبوة وجمالها وملاحتها، حتى نتذكر قول حسان رضي الله عنه:

وأجمل منك لم تر قط عيني... وأجمل منك لم تلب النساء
خُلقت مبرءاً من كل عيب... كأنك قد خلقت كما تشاء⁽⁵¹⁾

المبحث الثاني: اللغة والتراكيب

هذا الوصف من كلام الأعراب الخالص، فالألفاظ خالصة الفصاحة، تكسوها الملاحه، فيها سُمّت كلام الأعراب ورونقه وجماله، يقول الجاحظ: "إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنق، ولا الد في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان؛ من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء"⁽⁵²⁾.

الألفاظ رشيقة أنيقة، لجرسها لذة في الأسماع، تجري على اللسان بغير كلفة ولا تكلف، وهي من خصائص الكلام الفصيح العالي، ولذا عدّ كلامهم أشرف الكلام وأحسنه: "ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كلام الأعراب خاصة؛ إذ كان أشرف الكلام حسباً، وأكثره رونقاً، وأحسنه ديباجاً، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة؛ وإذ كان مدار الكلام كله عليه، ومنتسبه إليه"⁽⁵³⁾.

وانطوى الوصف على عدد من الألفاظ الغريبة، كغرابه لغة الأعراب، وهو أمرٌ بدهي لأعرابية لا تسكن الحضر، فقد شاع في مفرداتها (ثجلة، صعلة، سهل، أزح، أقرن...)، والغرابه في كلام الأعراب مسوغة مستملحة، يقول الجاحظ: "كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً سوقياً، فكذا لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً"⁽⁵⁴⁾.

فأنت تجد الوصف حسن الحديث، لطيف المداخل، لم تعاضل في كلامها، ولم يركب بعضه بعضاً، وهذا من معاييب الكلام عند العرب، قال ابن الأثير في المعازلة المستكرهه: "نوع من التأليف يجب اجتنابه؛ لأنه عيب في الكلام فاحش، وأصل المعازلة في اللغة: من تعاضلت الجرادتان؛ إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسعى (تأليف) الكلام الذي تداخلت معانيه، وركب بعضها فوق بعض، المعازلة، مأخوذاً من ذلك وهو اسم لائق بمسماه"⁽⁵⁵⁾.

والألفاظ بينة متميزة عن بعضها، والتراكيب حسنة التقاسيم لإفهام السامع؛ لأن المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به"⁽⁵⁶⁾.

والتراكيب -في جملتها- قصيرة مركزة (زأيت رجلاً ظاهر الوضأة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبهُ ثجلة، ولم تُزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دَعَجٌ، وفي أشقاره وطفٌ، وفي صوته صهلٌ، وفي عنقه سَطَعٌ، وفي لحيته كَثَاثَةٌ، أَرُجُ أقرن...)، هذا السياق المتحفز، وهذه

(47) اللسان، مادة (حقد).

(48) تهذيب اللغة، 4/104.

(49) جمهرة اللغة، 2/290.

(50) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، 8/506.

(51) ديوانه، 1/441.

(52) البيان والتبيين، 1/144.

(53) العقد الفريد، ابن عبد ربه، 3/383.

(54) البيان والتبيين، 1/144.

(55) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ابن الأثير، 230.

(56) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، 2/289.

الأنغام السريعة؛ يقتضيان تركيزَ العبارة أشد التركيز؛ لأنّ ذكرَ ما يدل عليه السياق، والحال هذه، عائقٌ يعوق تدفقَ النغم، ويحبسُ اندفاعَ الروح، ومشهدُ النبيّ الكريم مشهدٌ مهيبٌ لامرأةٍ عربيةٍ، ذاتِ فطرةٍ صادقةٍ، نقية اللسان والنفس، مما هزّ نفسها، فتزاحمت فيها الخواطرُ، وتسابقت الكلمات، وتلونت الصياغة بهذا النمط من التركيز والبيان، وحشدت أروع الصفات في مدّةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ، فكانت حلاوة الوصف تتسابق في نفسها وعلى لسانها، إذ روعة الوصف صورةً من انبثاق جمال النبوة وأنوارها في نفس أمّ معبد.

والأمر -ههنا- ليس تحليل كلماتٍ ولا عبارات، وإنما مذاق جمال نبوي، وشهود أنوارٍ محمدية؛ تسلطت على نفس هذه الأعرابية، فأخرجت أجمل ما في نفسها، وأنق ما في بيان الأعراب.

وينتهي معجم الأعرابية في وصفه عليه السلام إلى المعجم الجمالي (الوضاءة، أبلج، حسن، أزج، أقرن، وسيم، قسيم، أبهاه، وأجمله، حلو، غصن...)، وقد غرقت الأعرابية من غير تكلف ولا غلو كغلو الشعراء من معجم العربية الجمالي، لتصف حسنه وبهاءه عليه السلام، فتماسكت هذه اللبنة الجمالية لترسم صورةً بديعةً لمشهد النبي عليه السلام.

وانظر لعنايتها بمقاطع كلامها، فهي معتدلةٌ متساويةٌ مليحةٌ، وقد جاء في خبر معاوية عناية سادة العرب وقرومهم بمقاطع الكلام، إذ "قال معاوية: يا أشدق؛ فم عند قُروم العرب وججاجها، فسأل لسانك، وجُل في ميادين البلاغة، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال، فإني شهدت رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- أملى على علي بن أبي طالب -رضى الله عنه- كتاباً، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المُصرّم صريمته"⁽⁵⁷⁾.

وهذا لفظنة العرب لفضل المقاطع في إكساب الكلام رونقاً وحسناً، و"للکلام بذلك طلاوة ورونق، وسببه الاعتدال؛ لأنه المطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة؛ وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مرأه فيه لوضوحه"⁽⁵⁸⁾.

المبحث الثالث: بلاغة الوصف

أولاً: الخبرة وإصابة الوصف:

إذا تأملت كلام الأعرابية؛ وجدته يجري على نسقٍ واحدٍ من النمط الخبري، فقد خلا الوصف من الإنشاء الطلبي، وتتابعته الجملة الخبرية، أخذت بعضه بخبرٍ بعض، في سلاسة وسيلان فكرٍ، وغزارة معنى، وإيجاز لفظٍ، وقد ذكرت أمّ معبد وصفاً للنبي -عليه السلام- بعد أن سألتها أبو معبد ذلك، بقوله: (صفيه يا أمّ معبد)، وهو على يقين بصحة وصفها وإصابتها، فهو يريد الانتقال من المجهول الموحش إلى العلم المؤنس بالوصف كأنه المعاينة، كما يذكر الجرجاني "نفع على أن الأنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر، ليس له سبب سوى زوال الشك والريب"⁽⁵⁹⁾.

فالوصف يقوم على جملة من الكلام الخبري؛ لتجلية أمرٍ غامضٍ طلبه السائل، فلا يجاب عنه إلا بوصفٍ خبري، والخبر مرتكز كلام العرب ومدار كلامهم؛ لكونه "أعظم شأنًا وأعم فائدة؛ لأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وفيه تقع الصياغات العجيبة، وبه تقع غالباً المزايا التي بها التفاضل، ويتوقف عليه فوائد الإنشاء"⁽⁶⁰⁾.

وبذا أفرغت الأعرابية مقصودها، وأبلغت حاجتها، وأشفقت غليل سائلها بالخبر، فالأصل في الكلام الذي يتصنّ خبراً أن يكون مقصوده "إفادة السامع بمضمون الخبر"⁽⁶¹⁾، وبه يحصل الأنس واللذة بالعلم، وهذا يضمنه الخبر، فهو إعلام، "والخبر هو العلم"⁽⁶²⁾.

وقد جاء الخبر متلونا بين الإثبات والنفي؛ لحاجة الكلام إلى ذلك، بينما تجري هذه الأعرابية على سجيها في الكلام بروقٍ حسنٍ، فإنها قالت: (زَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوُضَاءَةِ، أَلْبَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ...)، أتبعته إثباتها الصفات الحسنة بنفي ضدها؛ تأكيداً وتصديقاً لما ذكرت (لَمْ تَعْبَهُ نُجْلَةٌ، وَلَمْ تُزَّرْ بِهِ صَعْلَةٌ)، وهي تجري بهذا البيان الفصيح، تنتقل من إثباتٍ إلى نفي، والعكس، حتى تفى محمداً -عليه السلام- بعض حقه.

وقد أخذتها الدهشة من حسنه ونوره وبهائه، فخشيت أن تقصّر في وصف له، فأتمت كلامها بهذا النفي الموجب لضده من الإثبات، فالنفي سلبي، فنفي المعايير سلبي، وهذا ليس بحسنٍ إن توقف الواصف عنده، فلا بد من الإثبات الذي يملأ فراغ النفي، ولذا تعاضد أسلوبا الإثبات والنفي في خلق صورةٍ مليحةٍ صادقة، وهذا ما كانت تحرص عليه الأعرابية أشد الحرص، فالأعراب كانوا يتحرزون من الخطأ الموهوم أنه كذب، فالصدق في الخبر، والإصابة في الوصف؛ هو وكذ الأعرابية وغايتها.

(57) كتاب الصناعتين، العسكري، 407.

(58) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، 1/ 272.

(59) أسرار البلاغة، الجرجاني، 125.

(60) الأطول، شروح التلخيص، 1/ 190.

(61) حاشية الدسوقي على شرح السعد، 1/ 192.

(62) الصحاحي في فقه اللغة، ابن فارس، 179.

ثانياً: التفصيل بعد الإجمال:

هناك طريقتان من طرائق نظم الكلام عند العرب؛ أن تُجمل كلاماً وتوجز فيه، ثم تشرع في شرحه وتفسيره، أو تفصل ثم تُجمل، وهي طريقة أعرابية أصيلة، أغفلها كثير من البلاغيين، وقد أجملت الأعرابية، فقالت: (حَسَنَ الْخَلْقِ) ثم فصلت، (لَمْ تَعْبَهُ تُجَلَّةٌ، وَلَمْ تُزْرَ بِهِ صَعْلَةٌ..)، ثم أجملت (وَسِيمٌ قَسِيمٌ)، ثم فصلت (فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطْفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُقْبِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَائَةٌ، أَنْزُ أَقْرَنُ...)، ثم فصلت (إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ..). ثم أجملت (خُلُوُ الْمُنْطِقِ) ثم فصلت، وهي تجري على هذا النسق الرائع من الإجمال والتفصيل، لما يطلبه سياق الوصف وبلاغة الكلام؛ فإن هذا النمط من البلاغة "يظهر المعنى في صورتين مختلفتين؛ إحداها مُجملةٌ مُهممةٌ، والأخرى مفصلةٌ مُوضحةٌ، وهذا من شأنه أن يزيد المعنى تمكناً من النفس، فإن المعنى إذا أُلقيَ على سبيل الإجمال والإبهام؛ تشوّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يردُّ بعد ذلك، فإذا أُلقيَ كذلك تمكّن فيها أفضل تمكّن، وكان شعورها به أتم، ولذتها بالعلم به أكمل⁽⁶³⁾.

وللإجمال في مواضعه فوائد؛ "كون اللفظ أجمع للفوائد مما يساويه في الأجزاء"⁽⁶⁴⁾، وكذا التفصيل في موطنه، فلا تفضيل مطلق لأحدهما على الآخر، إذ "لا يقال: هو مجمل، والمجمل ليس أبلغ من المفصل، بل المفصل فيه زيادة؛ لأنا نقول: قد يكون الإجمال أبلغ، لتذهب نفس السامع كل مذهب، وقد عرف بهذا أن لكلٍ من هذا النوع والذي قبله قوة ليست للآخر، والتفصيل أوضح من الإجمال"⁽⁶⁵⁾. فإن مشاهدة النبي -عليه السلام-، وبغية وصفه؛ أمرٌ ليس باليسير، وحتى يحفظ ما تقول فقد أجملت أحسن إجمال، وخشية اللبس فصلت أحسن تفصيل، فأوفت كل ذي شطر نصيبه من البيان والجمال، قال الزمخشري: "كما يجب على البليغ في مظارن الإجمال أن يُجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يُفصل ويُشيع"⁽⁶⁶⁾.

ثالثاً: الفصل والوصل:

جرت الأعراب في كلامها على سليقتها وذائقة منطقتها، وهي سليقة راسخة، وذائقة جمالية، تقتضي لكل مقام مقالاً، وتبني عباراتها بناءً متسقاً، فتضع الكلمة موضعها، وتعنى بمقاطع كلامها، ومواضع الوصل والفصل فيه، حتى صفت لهم هذه دون غيرهم، يقول الجرجاني: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يُصنَع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد أخرى؛ من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلص، والإقوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد"⁽⁶⁷⁾، وقد بلغ من عنايتهم بهذا الفن أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة، بقوله: ما البلاغة إلا "معرفة الفصل من الوصل"⁽⁶⁸⁾.

إن هذا بابٌ نفيسٌ من حرّ الكلام العربي الصميم، وإذا تأملت وصف أم معبد الأعرابية؛ وجدتها تخالف في نظمها بين الوصل والفصل، مراعيةً حال النظم، فقولها: (رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعْبَهُ تُجَلَّةٌ، وَلَمْ تُزْرَ بِهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطْفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُقْبِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَائَةٌ، أَنْزُ أَقْرَنُ).

ففي تتابع أربع جملٍ بغير حرف عطف، كأنها مسبوكةٌ في إهابٍ واحدٍ من النظم، فهذه الأوصاف تتابع بغير عطف، وقد خرج الوصف حراً مرسلًا، وهي ترجع إلى موصوفٍ واحدٍ، ولو عطف لأضعفت النظم، وجردت من طلاقته وقوة سبكه، وهي جملٌ مثبتة، "فأما الصفات فالأكثر أنه لا يعطف بعضها على بعض، كقولك: مررت بزيدٍ الكريم العاقل الفاضل، وإنما قلّ العطف فيها؛ لأن الصفة جاريةٌ مجرى الموصوف؛ ولهذا فإنه يمتنع عطفها على موصوفها"⁽⁶⁹⁾.

وترك الوصل لا يعني عدم الاتساق، بل ربما جاء لكمال الاتصال المعنوي، وقد تقرر "أن الجملة إذا كان لهما محل؛ فلهما طالبٌ لفظيٌ يستدعيهما استدعاءً واحداً، وينصب إليهما انصباباً واحداً، وإذا لم يكن لهما محل؛ فليس بينهما جامعٌ لفظي، والعطف لا بد له من جامع، فاحتجنا إلى النظر في الجامع المعنوي"⁽⁷⁰⁾.

ثم عطفت نفيًا على نفي (لَمْ تَعْبَهُ تُجَلَّةٌ، وَلَمْ تُزْرَ بِهِ صَعْلَةٌ)؛ لحاجة النفي للعطف، ثم أرسلت كلامها بغير عطف (وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ..)، فقد شرعت في نظمٍ جديدٍ، إثبات بعد نفي، ثم لما أرادت نظمًا خاصًا من تقديم شبه المجرور؛ لتفيد اختصاصه

(63) المثل السائر، 24/2.

(2) الأطول (شرح التلخيص) 1/440.

(65) عروس الأفراح، السبكي، 2/115.

(66) أنوار الربيع في أنواع البدع، صدر الدين المدني، 6/22.

(67) دلائل الإعجاز، الجرجاني، 222.

(68) البيان والتبيين، 1/88.

(69) الطراز، العلوي، 2/28.

(70) عروس الأفراح، السبكي، 125.

وتفضله على غيره في هذه الصفات؛ عطف وأشركت جملها معاً في حكم واحد، وهو الاختصاص (في عَيْنِيهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُقْبِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ..)، فهو مقطع غاية في السبك والنظم، يجري على نسقٍ واحد.

ولما أوفت النظم السابق؛ شرعت في نظم جديد بغير عطف؛ ليفيد الجدة والمغايرة، (أَزَجُ أَقْرَنُ..) فهي جملة جديدة، وبناء جديد، وجب عدم ربطه بما سبق، (إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْهَيَاءُ)؛ هاتان جملتان متقابلتان، إن صمت وإن تكلم، وهما بناء واحد، ولولا الواو العاطفة ما فهم هذا الكمال في وصفه حين صمته وحين كلامه، ثم تستأنف بغير واو، ثم تعطف (أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَهْمَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ..)، وغاية ذلك رفع الوهم باستقلاله بوصف دون آخر، بل جمع له الوصفان في صعيد واحد، ومن كلامها وبلاغة أمثالها أخذ العرب قوانين البلاغة، يقول الجرجاني: "واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: (هو يقول ويفعل، ويضرب وينفع، ويُسِيءُ ويُحْسِنُ...)، وأشبه ذلك؛ ازداد معنى الجمع في (الواو) قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذٍ صريحاً؛ وذلك أنك إذا قلت: (هو يضرب وينفع)، كنت قد أفدت (بالواو) أنك أوجبت له الفعلين جميعاً، وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت: (يضرب وينفع) من غير (واو) لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك (ينفع)، رجوعاً من قولك (يضرب)، وإبطالاً له"⁽⁷¹⁾.

ثم شرع مستأنفة الوصف عن منطقه كعادتها، تبدأ مستأنفة بغير واو: (خَلُوُ الْمُنْطِقِي، فَصَلًّا، لَا تَنْزُرْ وَلَا هُنْدُرْ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَزْرَاتٌ نَظْمٌ يَتَحَدَّرُنْ)، الجملة التالية بيان وإيضاح للأولى، فلا حاجة للعطف، فهما كجملة واحدة، ثم شرعت في التشبيه زيادة في الإيضاح والبيان والتوكيد، "كذلك يكون في الجمل ما متصل من ذات نفسها بالتي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها"⁽⁷²⁾.

وعلى هذه الشاكلة من الوصل والفصل في مقاطع الكلام يجري وصفها لجمال النبوة وأنوارها، ثم تصل بالفاء العاطفة في قولها: (عُصْنٌ بَيْنَ عُصْنَيْنِ، فَهِيَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا)، كأن الفاء للاسترادك والاحتراس، يقول سيوييه عن غرض الفاء العاطفة: "هي تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك مُتَّسِقًا بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بَعْضٍ"⁽⁷³⁾، ومذاق الفاء في كلامها المتقدم يشي بالاحتراس والاستردك، وهو باب نفيس من أبواب البلاغة والبيان.

المبحث الرابع: الإيقاع الصوتي

لا تقف بلاغة الكلام على دلاليته ومعانيه؛ بل يتصل ذلك بحسن الجزس، وحلو المقاطع، وعذب النغمة، وإذا تأملت وصف الأعرابية؛ وجدت ألفاظها رشيقة عذبة، ومقاطع كلامها وفواصل عباراتها، ذات نغم وجزس عذب، فأنت تجد العبارات متوازنة، حسنة التقسيم، عذبة السجع (لَمْ تَعْبَهُ نَجْلَةٌ، وَلَمْ تَزُرْ بِهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنِيهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُقْبِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُ أَقْرَنُ..).

والسجع "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرفٍ واحد"⁽⁷⁴⁾، وهو عذب مستملح في كلام العرب، "كثير التدار، عظيم الاستعمال في السنة البلغاء، ويقع في الكلام المنثور"⁽⁷⁵⁾، وسر جماله أنه "له موسيقى تطرب لها الأذن، وتمش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل، أو يخالطها فتور، فيتمكّن المعنى في الأذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول"⁽⁷⁶⁾، ومن فوائده أن الكلام به يكون منغماً خفيفاً، يسهل حفظه، وتحلو متابعتة، والأعرابية لم تتبالغ في السجع، ولم تتكلف جرياً على طريقتهم في نظم الكلام، وهو مذهب أقداح العرب والبلغاء والفصحاء، وإن أقللت من السجع؛ فقد أكثرت من توازن الفقرات (في عَيْنِيهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، وَفِي عُقْبِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُ أَقْرَنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْهَيَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَهْمَاهُ مِنْ بَعِيدٍ...).

تأمل توازن الفقرات في فواصلها (دَعَجٌ، وَطَفٌ، صَهْلٌ)، وهي جميعها على وزن (فعل)، وهو وزن سهل، لا ثقل فيه، يجري على اللسان بسلاسة، والموازنة "أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن"⁽⁷⁷⁾.

وتأمل التناسب الصوتي في قولها (أَزَجُ أَقْرَنُ)، وهي صيغة أفعال، وانظر حسن النسق وحلو الطباق في قولها (أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَهْمَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ)، وتكرار كلمة (أجمل) وصيغة (أفعل)، وما تحدّثه من نغم وطلاوة في الكلام، والموافقة الصوتية (في قريب وبعيد)، وهذه الموازنة اللفظية تحسبها المقابلة المعنوية، وحرف اللين (الياء) يكسو الكلمات جزساً عذباً، يسهل معه النطق،

(71) دلائل الإعجاز، 226.

(72) دلائل الإعجاز، 227.

(73) الكتاب، سيبويه، 217/4.

(74) عروس الأفراح، 299/2.

(75) الطراز، 12/3.

(76) البلاغة الصافية، حسن عبد الرزاق، 195.

(77) المثل السائر، 272/1.

ويحسن به نغمُ الكلام، وهذه الموازنة سرٌّ من أسرار رونق الكلام وعذوبته، و"للكلام بذلك طلاوة ورونقٌ، وسببه الاعتدال؛ لأنه مطلوبٌ في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطعُ الكلام معتدلةً؛ وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مرأى فيه لوضوحه"⁽⁷⁸⁾. وتأمل حلاوة التجنيس في قولها: (وَسِيمٌ قَسِيمٌ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاءٌ وَعَلَاءُ الْهَاءِ، أَحْمَلُ النَّاسِ وَأَهْبَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، لَا تَزُرُّ وَلَا هَدْرٌ)، و"إنما يحسن التجنيس إذا قلَّ، وأتى في الكلام عَفْوَاً من غير كِبٍ ولا استكراه، ولا بعدٍ، ولا ميل إلى جانب الرِّكَّة"⁽⁷⁹⁾.

وقد جاءت هذه المحسنات بغير كلفةٍ، جريباً مع الطبع العربي الأنيق؛ لذا كان "كلامُ المتقديمين الذين تركوا فضيل العناية بالسجع، ولزموا سجيّة الطبع؛ أمكن في العقول، وأبعد من القلق، وأوضح للمراد، وأفضل عند ذوي التحصيل، وأسلم من التفاوت، وأكشَفَ عن الأغراض، وأنصَرَ للجهة التي تنحو نحو العقل، وأبعد من التعمُّل الذي هو ضربٌ من الخداع بالتزويق"⁽⁸⁰⁾. وتأمل حسن توظيفها لحروف اللين في بنية الكلمات (رَأَيْتُ، ظَاهِر، الوَضَاءة، وَسِيمٌ، قَسِيمٌ، عَيْنِيهِ أَشْقَارِهِ، صَوْتِهِ، لِحْيَتِهِ، كَثَائَةِ، فَعَلَيْهِ، الْوَقَارِ، سَمَاءٌ، وَعَلَاءُ، الْهَاءِ، النَّاسِ، أَهْبَاهُ، بَعِيدٍ، قَرِيبٍ، حُلُو، حَزْرَاتٍ، طُولٍ، رُفْقَاءٍ، مَخْفُودٍ، مَخْشُودٍ)، وحرف اللين سهل النطق لأنه "تتجافى عنه الشفتان"⁽⁸¹⁾.

مما يسر نطقه، ويجري به الصوت، فالحروف الصامتة إذا ضُمَّت مع بعضها بعضاً، كانت ثقيلة في السمع، مكدودة في اللسان فيأتي حرف اللين لغرض صوتي، فهو "لا يكون للإلحاق إنما جيء به لمعنى وهو امتداد الصوت"⁽⁸²⁾، وهذا الامتداد يمنح الكلام سهولة ووضوحاً وسكينة في الإيقاع، إذ "تمتاز حروف المد واللين (الصوائت) بميزة الوضوح السمعي وسهولة نطقها وهو ما جعلها أصواتاً موسيقية منتظمة قابلة للقياس خالية من الضوضاء لها القدرة على الاستمرار بجريان الصوت بها، وهي بهذا تختلف عن الحروف الساكنة الصحيحة (الصوائت) التي هي عبارة عن ضوضاء ناتجة عن الاحتكاك"⁽⁸³⁾.

ولذا لحروف اللين معنى صوتي في تمييز حدود الحروف والكلمات وتبيين الكلام بعضه عن بعض، يقول الزمخشري في مقارنة الهمزة المجهورة بحروف اللين: "الهمزة حرفٌ خفيٌّ؛ لأنه أدخل الحروف إلى الحلق، وكلما سفل الحرف، خفي جرسه، وحروف المد واللين أئبن منها؛ لأنها أقرب إلى الفم، فالواو من الشفتين، والياء من الفم، والألف وإن كان مبدؤها الحلق إلا أنها تمتد حتى تصل إلى الفم، فتجد الفم والحلق مفتحين غير معترضين على الصوت بحصرٍ، وبينها وبين حروف المد واللين مناسبة، ولذلك تُبدل منها عند التخفيف"⁽⁸⁴⁾.

والأعرابية بسليقتها الصافية اهدت إلى هذا النغم المطرب في حروف اللين، ليسهل عليها النطق، وليطرب السامع بمقاطع كلامها، وقد خلت عدد من الكلمات من حروف اللين وهي سمة في بداوة الألفاظ، وإن كان عسر النطق ليس ضربة لازب في كلام الأعراب، وإلا لما كان كلامهم أنق الكلام وأهباه كما ذكر الجاحظ في اقتباس متقدم.

واستثمر البلغاء والأدباء موسيقية العربية وأنها لغة موزونة، فحفلوا بهذا الإيقاع المطرب لما علموا من سره وقيمته في جمال النص وروعته، وهو سمة أساسية في كلام البلغاء العرب من الخطباء وأصحاب الرسائل، لذا حرصوا على إثارة الإيقاع وتجويد النغم، وقد حباهم الله من الملكة قدرًا عظيمًا فنحووا بهذا الإيقاع والنغم المجرد إلى محض الإتقان والإحكام،⁽⁸⁵⁾ لقيمة الإيقاع في تجويد النثر، وخفة مؤونته على الأسماع والقلوب.

وأم معبد أرادت من السامع أن يشاركها مباشرة في إحساسها الباهر بالجمال النبوي فأفرغت هذا الوصف المتدفق مباشرة؛ لكي يشهد المتلقي روعة التجربة وحلاوة المشهد النبوي تتمثل أمامه عياناً بغير واسطة أو تكلف، وهذا لا يتأتى لها إلا بهذا الإهاب الجليل الجميل من الإيقاع العذب المطرب.

(78) المثل السائر، 1/ 272.

(79) نهاية الرّب في فنون الأدب، النوري، 7/ 98.

(80) أسرار البلاغة، 8.

(81) الكتاب، سيبويه، 4/ 453.

(82) الخصائص، ابن جني، 1/ 233.

(83) ظاهرة المد في الأداء القرآني دراسة صوتية، يحيى مباركي، 91.

(84) شرح المفصل، ابن يعيش، 5/ 219.

(85) انظر، المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطيب، 3/ 28.

المبحث الخامس: شخصية أم معبد

هي "عائكة بنت خالد، وقيل خلود بن مُنْقِد بن ربيعة بن أصرم بن ضبيسي الخزاعي، أم معبد صاحبة الخيمتين" (86). وهي التي نزل عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في خيمتها حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجراً، وذلك الموضع يدعى إلى اليوم بخيمة أم معبد (87)، هاجرت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأسلمت، عاشت أم معبد إلى أيام عثمان (88)، وذكر بأنها توفيت في خلافة الفاروق عمر (89)، وكان زوجها أكرم بن أبي الجون الخزاعي، وهو أبو معبد، وحديثه معها مشهور، وذلك المنزل يُعرف اليوم بخيمة أم معبد (90). أسلمت أم معبد -رضي الله عنها- وأخوها حبيش بن الأشعر، واستشهد يوم الفتح، وقيل: إن زوج أم معبد لحق برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبايعه، ورجع إلى بيته، ولقيهما الزبير -رضي الله عنه- عائداً إلى مكة، فكساها ثياباً بيضاء (91). وذكر أن الشاة التي مسح النبي -صلى الله عليه وسلم- ضرعها، أنها عاشت إلى عام الرمادة، قالت أم معبد: "كنا نحلها صبحوحاً وغبوقاً، وما في الأرض لبن قليل ولا كثير" (92).

وأم معبد أعرابية أسلمت وهاجرت، وصحبت النبي عليه السلام، وقد عُرف الأعرابُ بصدق اللهجة، ونأجهم عن الكذب، فهي صادقةٌ موثوقةٌ فيما تروي.

كانت من الأجواد، تطعم وتسقي من يمرُّ بها، كريمة النفس، سخيّة اليد (تحتبي وتتعهد بفناء الخيمة، ثم تسقي وتطعم)، تجلس مجلس الرجال، والاحتباء طريقة العرب في الجلوس، واحتباء الرجل "أن يجمع ظهره ورجليه بثوب" (93). (وكانت امرأةً جلدَةً بَرَزَةً)، وجلدة أي شديدة متماسكة الخلق، والجلد "الشدة والقوة في الخلق" (94)، ويُقال امرأةٌ بَرَزَةٌ "إذا كانت كهلّة، لا تحتجب احتجاب الشواب، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة، تجلس للناس وتحدثهم، من البروز وهو الظهور والخروج" (95). وفي اللسان زيادةً وتفصيلاً نافعان، يقال امرأةٌ بَرَزَةٌ: "بارزة المحاسن، قال ابن الأعرابي: قال الزبير: البرزة من النساء التي ليست بالمترابلية التي تُزايك بوجهها، تستره عنك وتتكب إلى الأرض، والمُخَرَّمَةُ التي لا تتكلم إن كلمت، وقيل: امرأةٌ بَرَزَةٌ مُتَجَالَّةٌ تَبْرُزُ للقوم يجلسون إليها، ويتحدثون عنها، والبرزة من النساء الجليله التي تظهر للناس، ويجلسن إليها القوم، وامرأةٌ بَرَزَةٌ: موثوق برأها وعفافها" (96). في عفيفةً رزينةً عاقلةً، ليست بشابة، تثق بنفسها، لا مَطْمَعٌ فيها لسبها وعفتها ورزانتها، لا تهابُ مكالمة الرجال، وقد حاورت النبي -عليه السلام- فبان حُسنُ جوابها، ورزانةُ عقلها، ونهضت بحق الأضياف في غياب زوجها، وهي امرأةٌ جمعت خيرَ خلال المرأة العربية؛ من كرمٍ وصدقٍ وعفةٍ ورجولةٍ ورجاحةٍ عقليٍ وفصاحةٍ منطقيٍ؛ ولذا اختارها الله أن تصف رسوله -عليه السلام- بأفصح لفظٍ وأنق عبارة، في حلوة المنطق، لوصفها طلاوةً، وعليه ملاحه، مع إصابة وصف، وصدق لهجة، وهذا سرٌّ من أسرارِ خلود وصفها وشهرته وتداوله، وعناية الرواة به.

ويحكي وصفها ولغتها وألفاظها شخصيتها وخصائص نفسها، فإن "الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تُتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابةٌ ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثةٍ ولين أخلاقي ولطافة مزاج" (97)، وقد عكس وصفها برصانة ألفاظها ومتين عباراتها؛ شخصيةً رزينةً حسيمةً، ودماثة الوصف وجماله تعكس ذوق أم معبد الجمالي، في انتقاء أنق الألفاظ وأملحها في وصف النبي عليه الصلاة والسلام.

الخاتمة والنتائج:

- وثَّق الرواة والإخباريون من كتاب السيرة قصة أم معبد، وتعاورتها كتبهم ومصنفاتهم، وانطوى وصف أم معبد على جماع أوصاف النبي -عليه السلام- وأجملها وأبهاها وأحسنها، وتميز وصفها بالاعتدال: ليس بالطويل المسرف، ولا بالقصير المخجل، فكان حسن التوسط والإيجاز.

(86) معرفة الصحابة، أبو نعيم، 280/5.

(87) انظر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، 431/4.

(88) كتاب الطبقات الكبير، الزهري، 274/10.

(89) انظر، الروضة الفيحاء في أعلام النساء، 236.

(90) انظر، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، 185/6.

(91) انظر، الروضة الفيحاء في أعلام النساء، 236.

(92) كتاب الطبقات الكبير، 274/10.

(93) غريب الحديث، الخطابي، 37/3.

(94) المخصص، ابن سيده، ج1 (السفر الثاني) 91.

(95) النهاية في غريب الحديث، 117/1.

(96) اللسان، مادة (برز).

(97) المثل السائر، 18/1.

- لغة الوصف فصيحَةٌ أعرابيةٌ، شاعَ فيها شيءٌ من الغرابة؛ لأن الوصفَ خرجَ من بيئةٍ بدويةٍ، وقد عنيت أمّ معبد بانتقاء ألفاظها، وإصابة وصفها، فاخترت أنقَ الكلماتِ، وأعذبَ العباراتِ، فجاء وصفها صادقاً مصيباً لأوصافه عليه السلام.
- لم تتكلفُ، ولم تتبالغُ، ولم تعاضلُ، وإنما جرت على سليقتها العربية الفصيحة في تركِ التعمل والتكلف، وجرى وصفها على النمطِ الخبيري، وأحسنت في بابِ الوصلِ والفصلِ والتفصيلِ بعد الإجمالِ.
- أقللت أم معبد من السجّعِ وألوانِ البديعِ والصورِ البيانية، وجاءت هذه المحسناتُ بغيرِ كلفةٍ، جريباً مع سجيّةِ الطبعِ العربي الأنيقِ.
- عنيت أم معبد بالموازنة في مقاطعِ كلامها، بلًا للموازنة من قيمة في رونقِ الكلامِ وعذوبته في وصفها.
- اهتدت الأعرابية بسليقتها الصافية إلى معنى حروف اللين في الكلام، فانطوى كلامها في مفرداته على هذه الحروف، إذ هي أسير في النطق، وأبين في السمع، وليس عسرُ النطق في كلام الأعراب ضريبةً لازبٍ، بل منطبقهم أكمل فصاحة وأطرب نغمة.
- جمعت أم معبد -رضي الله عنها- خيرَ خلالِ المرأة العربية؛ من كرمٍ وصدقٍ وعفةٍ ورجولةٍ ورجاحةٍ عقليٍّ وفصاحةٍ منطقيٍّ؛ ولذا اختارها الله أن تصف رسولَه -عليه السلام- بأفصح لفظٍ وأنقَ عبارة، فهي حلوةُ المنطقِ، لوصفها طلاوةً، وعليه ملاحهٌ، مع إصابة وصفٍ، وصدقٍ لهجةٍ، وهذا سر من أسرارِ خلودِ وصفها، وشهرته، وتداوله، وعناية الرواة به.

المراجع:

1. ابن الأثير، أبو السعادات المبارك الشيباني، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي، السعودية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
2. ابن الأثير، ضياء الدين (1956). الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد، جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي، العراق.
3. ابن الأثير، ضياء الدين (1995). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
4. ابن الأثير، علي بن محمد (2003). أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت.
5. الأزهري، محمد بن أحمد (1964). تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، محمد علي النجار، الدار المصرية، القاهرة.
6. الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (2002). معرفة الصحابة، تحقيق: محمد حسن محمد إسماعيل، مسعد عبد الحميد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
7. الأصبغي، عبد الملك قريش، خلق الإنسان، نسخة رقمية.
8. الألويسي، محمود شكري، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، قرأه وصححه: محمد حسن العرب، دار الفكر، بيروت.
9. الترمذي، محمد بن عيسى (1999). الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاکر، مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة.
10. الترمذي، محمد بن عيسى (2005). الشمائل المحمدية، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى.
11. ابن ثابت، حسان (1974). ديوانه، تحقيق: وليد عرفات، دار صادر، بيروت.
12. الجاحظ، عمرو بن بحر (1975). البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة.
13. الجرجاني، عبد القاهر (1991). أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاکر، دار المدني، جدة.
14. ابن جني، عثمان سعد (1986). الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
15. الجوهرى، إسماعيل بن حماد (1979). تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية.
16. الحسيني، صدر الدين (1968). أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاکر هادي شاکر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.
17. الخطابي، أحمد بن محمد بن إبراهيم (1983). غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، دار الفكر، دمشق.
18. الخطيب العمري، ياسين (2000). الروضة الفيحاء في أعلام النساء، تحقيق: حسام عبد الحكيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى.
19. الخنساء، تماضر، ديوانها، شرحه وضبطه: عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت.
20. الدارمي، مسكين (2000). ديوانه، تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

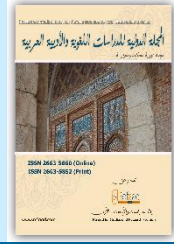
21. ابن دريد، محمد بن الحسن: *جمهرة اللغة*، دار صادر، بيروت.
22. ذو الرمة، غيلان بن عقبة (1998). *ديوانه*، تحقيق: عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى.
23. الزبيدي، مرتضى (1965). *تاج العروس من جواهر القاموس*، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار الهداية، الكويت.
24. ابن زكريا القزويني، أحمد بن فارس (1986). *مجمّل اللغة*، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية.
25. الزهري، محمد بن سعيد (2001). *كتاب الطبقات الكبير*، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى.
26. السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي (2003). *عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح*، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى.
27. ابن سيده، أبو الحسن بن إسماعيل الأندلسي، *المخصص*، تحقيق: لجنة إحياء التراث، منشورات دار الأمان الجديدة، بيروت.
28. الضبي، المفضل، *المفضّل*، تحقيق: أحمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة.
29. الطيب، عبد الله (1991). *المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها*، دار جامعة الخرطوم، السودان، الطبعة الثالثة.
30. ابن عبدربه، أحمد بن محمد (1999). *العقد الفريد*، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة.
31. عبد الرازق، حسن إسماعيل (2006). *البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبدع*، المكتبة الأزهرية، مصر.
32. العسكري، أبو هلال (2006). *كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر*، تحقيق: علي البجاوي، محمد إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى.
33. العلوي، يحيى بن حمزة (2010). *الطراز: المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز*، تحقيق: الشربيني شريفة، دار الحديث، القاهرة.
34. ابن فارس، أبو الحسن أحمد (1993). *الصاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها*، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت.
35. ابن فارس القزويني، أحمد (1991). *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.
36. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (1988). *كتاب العين*، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى.
37. الفيروز آبادي، مجد الدين (2008). *القاموس المحيط*، راجعه، أنس الشامي، زكريا أحمد، دار الحديث، القاهرة.
38. القرطبي، يوسف بن عبد الله (1995). *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.
39. القزويني، ابن يعقوب المغربي (1992). *شروح التخليص*، دار الهادي، بيروت، الطبعة الرابعة.
40. القلقشندي، أحمد بن علي (1963). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.
41. اللججي، نبيلة الرزاز (1995). *أصول قديمة في شعر جديد*، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.
42. مباركي، يحيى علي (1997). *ظاهرة المد في الأداء القرآني دراسة تطبيقية في المدة الزمانية*، مجلة جامعة أم القرى، العدد 15، السنة العاشرة.
43. المررد، محمد بن يزيد (1986). *الكامل*، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.
44. ابن مكرم، محمد (2003). *لسان العرب*، تحقيق: عامر حيدر، عبد المنعم إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
45. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.
46. النيسابوري، الحاكم (2002). *المستدرک على الصحيحين*، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.
47. ابن يزيد القزويني، أبو عبد الله محمد (1997). *صحيح سنن ابن ماجه*، جمع: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
48. ابن يعيش، يعيش (2001). *شرح المفصل للزمخشري*، تقديم: إميل بدیع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.



www.refaad.com

المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية
International Journal for Arabic Linguistics and Literature
Studies (JALLS)

Journal Homepage: <https://www.refaad.com/views/JALS/home.aspx>
ISSN: 2663-5860(Online) 2663-5852(Print)



Description rhetoric in Umm Ma'bad's language

Walid. M. N. Abu. Nada

Professor at the Faculty of Arts, Department of Arabic Language, Islamic University – Gaza, Palestine
wnada@iugaza.edu.ps

Received : 10/5/2021 Revised : 20/6/2021 Accepted : 7/8/2021 DOI : <https://doi.org/10.31559/JALLS2021.3.3.1>

Abstract: Hadith books and sources of the Prophet's biography discussed Umm Ma'bad Al Khuza'yya's description of the Prophet (PBUH) when he was her guest during his migration from Mecca to Medina. Umm Ma'bad's description of the Prophet is one of the finest descriptions and is considered a significant literary genre in the literature of Arabic speech. The study highlighted the structural mysteries included in the description pointing out the Arab's early attempts in the formation of speech including its eloquence, nicely arranged structures and lexis, beauty of rhythm and the musical composition of structures. Al Khuza'yya's work was thoroughly done, especially that the person under description was Prophet Mohammed, the finest creature ever to be possessed with such highly distinguished personal features.

Keywords: Description; Rhetoric; Hadith; Umm Ma'bad.

References:

1. Altyb, 'bd Allh (1991). Almrshd Ela Fhm Ash'ar Al'rb Wsna'tha, Dar Jam't Alkhrtwm, Alswdan, Altb'h Althalthh.
2. Abn 'bdrbh, Ahmd Bn Mhmd (1999). Al'qd Alfryd, Thqyq: Mktb Thqyq Altrath, Dar Ehya' Altrath, Byrwt, Altb'h Althalthh.
3. Alalwysy, Mhmwd Shkry, Rwh Alm'any Fy Tfsyr Alqran Al'zym Walsb' Almthany, Qrah Wshhh: Mhmd Hsn Al'rb, Dar Alfkr, Byrwt.
4. Alasbhany, Ahmd Bn 'bd Allh (2002). M'rft Alshabh, Thqyq: Mhmd Hsn Mhmd Esma'yl, Ms'd 'bd Alhmyd Als'dny, Dar Alktb Al'lmyh, Byrwt, Altb'h Alawla.
5. Alasm'y, 'bd Almlk Qryb, Khlq Alensan, Nskhh Rqmyh.
6. Abn Alathyr, Abw Als'adat Almbark Alshybany, Alnhayh Fy Ghryb Alhdyth Walathr, Thqyq: Tahr Alzawy, Mhmwd Altnahy, Als'wdyh, Dar Ehya' Alktb Al'rbyh, Alqahrh.
7. Abn Alathyr, Dya' Aldyn (1956). Aljam' Alkbyr Fy Sna't Almzwm Mn Alklam Walmnthwr, Thqyq: Mstfa Jwad, Jmyl S'yd, Mtb't Almjm' Al'lmy, Al'raq.
8. Abn Alathyr, Dya' Aldyn (1995). Almthl Alsa'r Fy Adb Alkatb Walsha'r, Thqyq: Mhmd Mhy Aldyn 'bd Alhmyd, Almkthb Al'sryh, Byrwt.
9. Abn Alathyr, 'ly Bn Mhmd(2003). Asd Alghabh Fy M'rft Alshabh, Dar Alfkr, Byrwt.
10. Alazhry, Mhmd Bn Ahmd (1964). Thdyb Allghh, Thqyq: 'bd Alslam Mhmd Harwn, Mhmd 'ly Alnjar, Aldar Almsryh, Alqahrh.
11. Aldarmy, Mskyn (2000). Dywanh, Thqyq: Karyn Sadr, Dar Sadr, Byrwt, Altb'h Alawla.
12. Aldby, Almfdl, Almfdlyat, Thqyq: Ahmd Shakr, 'bd Alslam Harwn, Dar Alm'arf, Alqahrh, Altb'h Alsab'h.
13. Abn Dryd, Mhmd Bn Alhsn: Jmhr't Allghh, Dar Sadr, Byrwt.
14. Dw Alrmh, Ghylan Bn 'qbh (1998). Dywanh, Thqyq: 'mr Altb'a', Dar Alarqm Bn Aby Alarqm, Byrwt, Altb'h Alawla.

15. Alhsyny, Sdr Aldyn (1968). Anwar Alrby' Fy Anwa' Albdy', Thqyq: Shkr Hady Shkr, Mtb't Aln'man, Alnjf Alashrf.
16. Aljahz, 'mrw Bn Bhr (1975). Albyan Waltbyyn, Thqyq: 'bd Alslam Mhmd Harwn, Mktbt Alkhanjy Bmsr, Altb'h Alrab'h.
17. Aljrjany, 'bd Alqahr(1991). Asrar Alblagh, T'lyq: Mhmwd Mhmd Shkr, Dar Almdny, Jdh.
18. Abn Jny, 'thman S'd (1986). Alkhsa's, Thqyq: Mhmd 'la Alnjar, Alhy'h Almsryh Al'amh Llktab, Alqahrh.
19. Aljwhry, Esmayl Bn Hmad (1979). Taj Allghh Wshah Al'rbyh, Thqyq: Ahmd 'bd Alghfwr, Dar Al'lm Llmlayyn, Byrwt, Altb'h Althanyh.
20. Alkhtaby, Ahmd Bn Mhmd Bn Ebrahym (1983). Ghryb Alhdyth, Thqyq: 'bd Alkrym Ebrahym Al'zbawy, Dar Alfkr, Dmshq.
21. Alkhtyb Al'mry, Yasyn (2000). Alrwdh Alfya' Fy A'lam Alnsa', Thqyq: Hsam 'bd Alhkym, M'sst Alktb Althqafyh, Byrwt, Altb'h Alawla.
22. Alkhsa', Tmadr, Dywanha, Shrh Wdbth: 'mr Altba', Dar Alarqm, Byrwt.
23. Alsby, Bha' Aldyn Ahmd Bn 'ly Bn 'bd Alkafy (2003). 'rws Alafrah Fy Shrh Tlkhys Almftah, Thqyq: 'bd Alhmyd Hndawy, Almkthb Al'sryh, Byrwt, Altb'h Alawla.
24. Abn Sydh, Abw Alhsn Bn Esmayl Alandlsy, Almkhss, Thqyq: Ljnh Ehya' Altrath, Mnshwrat Dar Alaman Aljdydh, Byrwt.
25. Abn Thabt, Hsan (1974). Dywanh, Thqyq: Wlyd 'rfat, Dar Sadr, Byrwt.
26. Altrmdy, Mhmd Bn 'ysa (1999). Aljam' Alshyh (Snn Altrmdy), Thqyq: Ahmd Mhmd Shkr, Mstfa Mhmd Hsyn Aldhby, Dar Alhdyth, Alqahrh.
27. Altrmdy, Mhmd Bn 'ysa (2005). Alshma'l Almhmdy, Thqyq: Syd 'mran, Dar Alhdyth, Alqahrh, Altb'h Alawla.
28. Alzbydy, Mrtad (1965). Taj Al'rws Mn Jwahr Alqamws, Thqyq: 'bd Alstar Ahmd Fraj, Dar Alhdayh, Alkwyt.
29. Alzhry, Mhmd Bn S'yd (2001). Ktab Altbqat Alkbyr, Thqyq: 'ly Mhmd 'mr, Mktbt Alkhanjy, Alqahrh, Altb'h Alawla.
30. Abn Zkrya Alqzwy, Ahmd Bn Fars (1986). Mjml Allghh, Thqyq: Zhyr 'bd Almhsn Sltan, M'sst Alrsalh, Byrwt, Altb'h Althanyh.